شعراء المهجر العامليون

بقلم: السيد حسن الامين

– ٢ –

ونلحظ دائما الفرق بين شكواه وهو في النجف وشكواه وهو في غير النجف، فالنجف تمدهُ ابدا بقوة روحية وطاقة معنوية، فتعيضه بذلك عن الكثير وتملأ قلبه بالفيض الغزير فهو مثلا في غير العراق يقول مثل هذا القول الذي لم يقل مثله في كل شعره العراقي :

خطب رماني حيث لا روض الثنا ... زاه ولا ماء المكارم جاري

ما بين قوم ليس يبرح جارهم ... في جور جهار وسوء جوار

بشرو لو كشف الغطاء وجدتهم ... ما بين شيطان وبين حمار

وبالرغم مما في هذا القول من قسوة ، وما قد يكون فيه من ظلم ، فقد نجد له ما يبرره ، بأن الشاعر وهو العالم الاديب المفكر ، كان لا يجد من يفهمه على حقيقته ، ومن لا ينظر اليه الا انه مشرد عن وطنه ، ومما زاد بالازراء به انه عاطل من المال خالي الجيب وهذا ما عبر عنه بقوله :

خوف وفقر واغتراب حيث لا ... يسر ولا عدوى على الاعسار

واذا تأملت الشدائد لم تجد ... كيمين مغترب بغير يسار

وتتكرر في شعره غير العراقي هذه الظاهرة :

كريم رماه الدهر في دار غربة ... فأصبح في دور الضلال يدور

وكيف يطيب العيش بين منازل ... وفيهن كلب للكرام عقور

منازل اشرار اذا ما سبرتها ... وجدت قصورا حشوهن قصور

اروح واغدو ظامئا في ربوعها ... وللماء حولي صيحة وخرير

خليلي ان الظلم طال ظلامه ... فهل من تباشير الصباح بشير

كما يتكرر الحزن وتتكرر الكآبة والشكوى في كل القصائد :

يعز علينا ان نروح ومصرنا　　لفرعون مغنى يصطفيه ومغنم

وهذه القصيدة من احسن قصائده واوقعها في النفس ، وكذلك القول في قصيدته الرائية :

تذكرت والمحزون جم التذكر　　مسرة ايام مضين واعصر

هذه القصيدة التي يتزاحم فيها التفاخر والتحسر فيقول مفاخرا :

منازلنا مأوى للغريب وظلنا　　ترف حواشيه على كل مصحر

واكنافنا مخضلة واكفنا　　تفيض على مثر لدينا ومقتر

نسوق الابي المستميت بابيض　　صقيل ونقتاد الحرون بأسمر

وتشرق اشراق الصباح وجوهنا　　اذا ما دجا في مأزق ليل عثير

نغلس في كسب المعالي وغيرنا　　نؤوم الضحى والمجد حظ المبكر

وسامرنا بالحي كل مهلل　　يصيح بأعلى صوته ومكبر

ثم يعود الى الاسى :

شريد فريد بالشآم مقلقل　　كأني بها ثاو على روق اعفر

وفي قصيدة اخرى يصف تنقله بين البلاد :

ففي حلب يوما ويوما ببابل　　وبالمنحنى يوما ويوما بحاجر

وفيها يقول :

لقد طال عمر الهجر يا ام عامر　　ورثت حبال الصبر من كل صابر

وحن الى ارض الشآم معرق　　تدافعه عنها اكف المقادر

رعى الله احبابا إذا ما ذكرتهم　　حسبت فؤادي في مخالب كاسر

اسائل عن اخبارهم كل وارد　　واطرح اخباري على كل صادر

وان ضحك البرق الشآمي اسبلت　　جفوني بمنهل من الدمع هامر

وان خفـقت ريح الشمال تبرجت   على الرغم مني محصنات السرائـر

وفي قصيدته اللامية تتنازعه شتى الاحاسيس وتتقاذفه ضروب العواطف فهو اذا تذكر غربته قال :

غريب يمـدّ الطرف نحـو بـلاده   فيرجع بالحرمـان وهـو همـول

في هذه القصيدة يتأكد لنا ما ذكرناه من قبل من انه كان وهـو في النجف روي الفؤاد شقي الجسد ، فقلبه في النجف وجسمه في الوطن :

الا فارحموا صبا لـه فـي عراقكم   فـؤاد وجسم فـي الشآم طريـح

اما هنا وقبل الوصول الى النجف فهو يقول ما يناقض القول السابق ، مع انه في الحالين غريب شريد محزون ، انه يقول مخاطبا دياره البعيدة :

ليهنكـم إن القلـوب لديكـم   ـ وان بعدت منـا الجسوم ـ حلول

فليس هنا ما يفعم القلب سعادة ويملأ النفس هناء ، ليس هنا قبة علي تفيض عليه اطمئنانا وسكونا ليس هنا مجالس للعلم ونواد للادب ، بـل هنا ما يعبـر عنه بقوله :

ومما شجا قلبي واجرى مدامعي   والقى عـلي الهم وهو ثـقيل

نزولي وقـد فارقـتكم في عصابة   سواء لديهم عالـم وجهـول

ويسترسل قائـلا :

وجدت بهامس الهـوان كأنـني   مهين ومجـدي لـو علمت اثيـل

أكابـد ذلا بعـد عـز موطـد   وكـل غريـب فـي اللئام ذليـل

ومن احسن قصائده في الحنين قصيدته التائية التي يقول في مطلعها :

من لـي بـرد مواسم اللـذات   والعيش بـين فتـى وبـين فتـاة

ورجـوع ايـام مضـين بعامـل   بين الجبـال الشم والهضبـات

ولكن امنية الشاعر لم تتحقق فلم يكتب له الرجوع الى الوطن بـل مات غريبا في دمشق .

السيد كاظم الامين

ومن شقراء خرج السيد كاظم الامين قبل مائة واربعين سنة (١٢٣١ ــ ١٣٠٣) مهاجرا الي النجف فعكف على الدرس وصحبة العلماء ، ثم حدثت له امور اثارت شجونه وبعثت فيه شكوى متواصلة كان ينظمها شعرا يبعث به الى الجبل ، وهو في ذلك يحن الى موطنه حنينا شعريا متواصلا يعم به لبنان كله ثم بخص جبل عامل :

تجاذبني الى لبنان نفس   تردد في حشا دنف جريح
وينزع بي لذاك السفح شوق   أبرده بهطال سفوح
واصبو في هوى تلك الروابي   ولي جبل من الحلم الرجيح
وتدعوني لعاملة وكم من   فلاة دون أربعها نزوحي

ثم يشير الى ما يتنازعه من الحنين الى بلاده ، والسكون في مهجره ، فهناك في الوطن الاهل والاحباب :

لئن اصبحت فيها مستهاما   فرب اخ بها طلق صبيح

وهنا في المهجر طلب العلم وجوار علي :

فطورا استجيب لها وطورا   اقول لها مكانك تستريحي
فأن قدمت رحلي لارتحال   قدمت اذا على بلد فسيح
وان اخرتها فالى مقام   حميد الامر ذي ثمن ربيح
لدى بلد به الرحمان اعلى   لصنو المصطفى اسنى ضريح

وبعد التردد الطويل والتراوح بين العودة والمقام ، فهو طورا يصيخ السمع الى نداء النفس الذي يدعوه الى الوطن ، وطورا يصيخ السمع الى نداء الروح الذي يدعوه الى الركون والسكون في الجوار العظيم ، والقلب موزع بين الندائين ، اذا فاض فيه الشوق ، تفجر فيه الايمان ، وما كان للشوق ان يغلب الايمان في قلب كقلب السيد كاظم الامين لذلك يصمم قائلا :

فخار الله لي ما فيه روحي   لدى الدنيا وبعد فراق روحي

وهكذا يقيم السيد كاظم اقامة دائمة في العراق ، ولكن الشوق يظل يهيجه فيلوذ بالشعر مشتاقا إلى شقراء ومن في شقراء :

اهدي السلام الى القوم الكرام بني القوم المشار اليهم بالكرامات

يهدى اليهم على بعد المدى وعلى — ما في الحشاشة من شوق وغلات

اشتاقهم وهم بين الضلوع على — ما بيننا حال من دو وموماث

هم بالشآم وداري بالعراق فيا — بعد الديار ويا طول المسافات

ويظل يلوذ بالشعر :

اعاملة حيتك اعني ديمة — لبست بها برد الربيع مفوفا

ولا زال معتل النسيم مؤرجا — لديك بانفاس الخزامى وألطفا

واذا كان الله قد خار له ــ كما قال ــ ما فيه الروح في الدنيا وفي الآخرة ، واذا كان القلب منه مستريحا بالايمان مطمئنا باليقين ، فانه انسان فيه ضعف الانسان ، فيه العاطفة الجياشة ، والنفس الحساسة ، فيه كل ما يثير الوجد ويضرم الشوق .. أيستطيع ان ينسى شقراء أيستطيع ان ينسى وادي الملول والحومة؟. ايستطيع ان ينسى الليالي القمراء في مشارف المطل ومطالع الدغالي هنا في حريبة وفي وردة في ظلال التين ، هنا في الدواوير بين الكروم ..

ووادي السلوقي والسكيكة متألقة بالغضيض من الرند والسنديان ، ومتبرجة بالنضير من السكوكع والخزامى والاقحوان .. أيستطيع ان ينسى ذلك ؟.. أيستطيع ان ينسى الاماسي في شواثا وطريق العين ، والاصائل على بئر مازح ؟ هنا حين ينشر الربيع مطارفه الخضر فينطلق البصر في اعذب ما يرى البصر ، وتجول العيون مصعدة الى القمم الشامخة فتمتلىء نضرة ونعيما ، ثم تجول مصوبة الى الوادي الاغن بين السندس والنضار واللجين .. وحين يزهو الصيف فتهب الريح رخاء من اقصى الذروة الى ادنى السفح بين رفيف اللوز وحفيف التين وتثني البطم . أيستطيع الشاعر النازح ان ينسى شقراء ، أيستطيع ان يمحو خيالها من ذهنه ويزيل ذكراها من قلبه ؟. ما كان مستطيعا مهما لاذ بالايمان ولجأ الى اليقين ، سيظل ابدا ذاك الشقراوي المشوق الى كل ما في

شقراء من اخوان وخلان وحسن شائق وجمال فتان ، فها هو يخاطب شقراء من مهجره البعيد :

يـا بلـدة اصبحت لبنـان ناضرة　　　بين البـلاد بهـا حييت من بلـد

ان لبنان كله عند ابن شقراء السيد كاظم الامين ، ان لبنان كلـه اصبـح ناضرا بشقراء ، وان محاسن شقراء هي التي اضفت على لبنان ما اضفت ، لذلك فهو يهتـف بها : حييت يا شقرا من بلد ... ثـم يتابـع الحديث عنهـا معـددا محاسنهـا :

طابت هواء وطابت منظـرا ، وصفا　　　بهـا المقام لاهـل الدين والرشد
هي الشفاء لدائـي لا العذيب ولا　　　ظباء جيرون ذات الغنـج والغيـد
الـق العصا بفناها غـير ملتـفت　　　الـى الابيرق فالدهنـاء فالسنـد
تعش من الدهر في امن وفي دعـة　　　بهـا ومهما تـرم من لـذة تجـد
سقيـا لهـا ولايـام بهـا سلفت　　　بغبطة ولعيش لـي بهـا رغـد
مضت وشيكا وما ابقت علي سوى　　　الوجـد المبرح والتذكار والسهد
فليت يرجع غب النأي لـي زمـن　　　طابت اصائلـه فـي ذلـك البلد
طـال الفـراق فـلا آت نسائلـه　　　ولا كـتاب يوافينا عـلى البعـد
اذا تذكرت فيهـا اعصرا سلفـت　　　أكاد أقضي من الاشجان والكمـد
وان تذكرت اقوامـي بهـا وذوي　　　مودتـي هد تذكاري قوى جلدي

وتظل شقراء نصيب عينيه ويظل يناجيها ويناجي اهلها بالشعر :

قـل للاحبة ان حلـت ديارهـم　　　خلفت اي فتى محب فـي النجف
مضنى الحشاشة في هواكم شفـه　　　الشوق الشديد الى لقاكم واللهف
وبـراه طول النأي عنكم فاغتـدى　　　رهن الحوادث في العراق اخا دنف
سقيا لذاك السفح كم نلنا المنـى　　　فيه وطرف الدهـر عنـا منطرف
فـي معشر ما منهـم الا اخـو　　　حسب صميم بالسماحة قـد وصف

قبضوا الاكف عن القبيح تكرما　　عما يشين وبالندى بسطوا الاكف

الشيخ حسن زين الدين

ومن رحل الى العراق قبل اربعمائة سنة كان الشيخ حسن زين الدين (٩٥٩ ــ ١٠١١) الذي اشتهر باسم صاحب المعالم ، وهو كتاب له بلغ من اجادته فيه ان صار يعرف به ، هاجر الى النجف دارسا فكان كغيره من العامليين يتخذ من الشعر تعبيرا عن الشوق الشديد وكانت هجرته من بلدة جبع ذات الرياض والغياض والماء النمير الصافي • فبعد ان درس فيها وفي غيرها ولم يعد يجد في جبل عامل ما يزداد به علما ومعرفة مضى الى العراق ، وهو القائل من قصيدة :

وان عراك العنا والضيم في بلد　　فانهض الى غيره في الارض وارتحل

والعناء الذي يعنيه هنا حين يقصد نفسه انما هو عناء الجهل ، والضيم الذي يريده هو ضيم المتطلع الى العلم المتشوق الى المعرفة وهو لا يجدهما ، لذلك طبق قاعدته على نفسه ومضى من جنائن جباع الى هجير النجف •

واذا كان قد دعا في شعره الى الارتحال ومضى عليه فما هو ان امتدت الايام به بعيدا عن وطنه حتى عاد يقول مثل هذا القول :

فؤادي ظاعن اثر النياق　　وجسمي قاطن ارض العراق

ومن عجب الزمان حياة شخص　　ترحل بعضه والبعض باقي

وتشتد به اللوعة ويثور الوجد فيسترسل :

وانلساني النوى واراق دمعي　　فلا اروى ولا دمعي براقي

سقتني اباريق الدهر كأسا　　مريرا من اباريق الفراق

وليس لداء ما ألقى دواء　　يؤمل نفعه غير التلاقي

ويظل مشوقا لا يجد غير الشعر متنفسا يلجأ اليه فيما هو فيه ، ويمضي وهو الفقيه الوقور المنكب على دروسه العاكف على كتبه المنصرف الى عبادته وتقواه ، يمضي كما يمضي الانسان الرقيق الشعور المرهف الحس حين تعن له ذكريات بلده وقومه واهله وحين تلوح له في الخيال جباع ويتراءى له الكرم

والبستان، واللذات والصحب والخلان، وحين يتصور لبنان كله فيهتف من اعماقه:

كم ليلة من ليالي البين بت بهـا ... ارعى النجوم بطرفي وهـي ترعاني
لا يسكن الوجد ما دام الشتات ولا ... تصفـو المشارب لـي الا بلبنـان
فكم تـقضت لنـا بالحي ازمنـة ... علـى المسرة فـي كـرم وبستان

على انه وقد قدرت له العودة الى الوطن، ونزل بعـد تلك النوى منازلـه الاولى في الكروم والبساتين، لم يلبث كغيره مـن العامليين ان عـاد يحن الـى مهجره ويتشوق الى منشئه متذكرا النجف وايامه فيها :

يا راكبا عج بالغري وقـف علـى ... تلـك الربـوع مقبـلا اعتابهـا
وقل ابن زين الدين اصبح بعدكـم ... قـد ألبسته يـد الشجون ثيابهـا
ودعت لواعجه الشديـدة جفنـه ... يـوم الفراق الى البكـا فاجابهـا

بيروت ... حسن الامين